بقايا الفصاح

وردت في محاضرة من محاضرات دمشق في الشهر الماضي هذه العبارة : فالسياسة المجرّدة من علم النفس انما هي سياسة مُفشفشة ، ولما سمع الجمهور لفظ : مفشفشة ، ابتسموا ، فهذه المادة العامية منحدرة من أصل فصيح ، وابتسام الذين سمعوها دليل على موقع أمثال هذه الألفاظ في أفهام الناس ، جاء في القاموس المحيط : فشفش ، ضعف رأيه ، ولكن العامة في دمشق توسعت بعض التوسع في معنى هذه المادة ، فاذا قالت : فلان فشفش ، أرادت بقولها انه ضعف ولم يبق له أمر نافذ ولا عمل ولا تأثير ، وما أظن ان لفظاً من الألفاظ يقوم مقام : فشفش في أفهام العامة ، فاذا قلنا لها : فلان ضعف أو قلّ سلطانه أو قرب زواله ، فكل هذا لا يغني عن قولنا : فلان فشفش : وابتسام الجمهور الذي أشرت اليه برهان على منزلة هذه المادة في أفهام الخاصة والعامة معاً .

وقد ذكر الميداني هذه المادة في أمثاله ، إذ قال : — سميتك الفشفاش ان لم تقطع — الفشفاش السيف الكهام وروى ابو حاتم الفشفاش بكسر الشين ، جعله مثل قطام ورقاش ثم أدخل عليه الألف واللام يضرب لمن ينفذ في الأمور ثم خيف منه النبو .

والمادة في هذا المقام تحتوي على شيء من الضعف .

ومن قول العامة في دمشق : فلان ذلق فقال كذا ... وكذا ... ، وذلّقه فلان ، بالتشديد ، فقال كذا ... وكذا ... وفلان ذلق لسانه فقال كذا ... وكذا ... وهي تريد بقولها هذا انه قال شيئاً على الرغم منه ، أو على سبيل النسيان ، أو من باب الاكراه والاستدراج في الاستنطاق ، وذلك ان المرء يخفي شيئاً في قلبه ثم يجري هذا الشيء على لسانه لأمر من الأمور التي ذكرتها ، فما هو أصل هذه المادة ، واذا كان لها أصل فصيح فهل من نسبة بين الأصلين العامي والفصيح ؟ .

في اللغة : ذلق اللسان كفرح فهو ذلق وأذلق أي ذرب ، وذلق اللسان كنصر وكرم فهو ذليق وذلق بالفتح وذلق كصرد وعنق ، أي حديد ، بليغ ، فعلى هذا الوجه ليس بين المادتين العامية والفصيحة شيء من النسبة .

فلنبحث عن معنى آخر لهذه المادة ، من معاني : أذلقه ، أقلقه وأضعفه ، ومن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

معانيها : أذلق الضبّ ، صبّ الماء في جحره ليخرج كذلّقه ، فأرى ان النسبة بين الأصلين العامي والفصيح قد وضحت .

جاء في الأغاني ، في كلام صاحبه على وقعة بدر ما يلي : فضربوهما أي ضربوا غلامين لبني الحجاج وبني العاصي ، فلما أذلقوهما قالا : نحن لأبي سفيان ، فتركوهما ...

فمعنى أذلقوهما في هذا المقام أقلقوهما وأضعفوهما ، أو على سبيل المجاز أحرجوهما كما يُحرج الضبّ ، حتى أقرّا بالذي يريده القوم .

وعلى هذا الشكل اذا قالت العامة : فلان ذلق فقال كذا وكذا ... فإن قولها له أصل فصيح ، ولكنها تصرّفت بعض التصرف في هذه المادة ، فقد استغنت عن الأصل الرباعي : أذلقه ، ومالت إلى الفعل الثلاثي ، فجعلت منه فعلاً لازماً ، فبدلاً من أن تقول : أذلقه فأُذلق ، او ذلّقه فذُلّق ، للمجهول ، خففت المادة وبنتها للمعلوم ، فجعلت منها فعلاً لازماً وهو : ذلق ، وهي تلفظ هذا الفعل بكسر العين ، أي من باب فرح ، فاذا قالت العامة في دمشق : فلان ذلّق فلاناً بالتشديد ، فذلق ، فلما ذلق قال كذا ... وكذا ... فان قولها هذا مبني على أساس فصيح .

ومن قول العامة : تخانقوا ، أي تقاتلوا ، والذي في القاموس المحيط : خنقه فاختنق ، الا ان هذه المادة وردت في الأغاني فقد ذكر أبو الفرج في أخبار جعفر بن علبة الحارثي الأسباب التي هاجت الحرب بين جعفر بن علبة وبين عقيل فقال في جملة الكلام : فتحدثا عندها — أي عند أمة لشعيب بن صامت الحارثي — فمالت الى العقيلي ، فدخلتهما مؤاسفة حتى تخانقا بالعمائم فانقطعت عمامة الحارثي وخنقه العقيلي حتى صرعه ...

فالتخانق كان في القديم بالعمائم ، كل واحد يحاول ان يخنق الآخر حتى يصرعه ، ثم تعاقبت العصور على هذه المادة ، حتى أدركت عصرنا هذا ، فأُطلقت فيه على مجرّد المقاتلة ، فلا يشترط في التخانق في أيامنا وجود العمائم ، فإذا قلنا : تخانقوا أردنا بقولنا هذا مجرّد التقاتل ، فقد يتخانق القوم ولا عمائم على رؤوسهم ، واشتقت العامة من هذه المادة لفظ : خناقة ، وأضافتها الى : مخانقة ، وهي كثيرة الاستعمال لها فاذا قالت : في حي كذا ... أو شارع كذا ... خناقة فانها تريد بهذا القول : مخانقة ، أي مقاتلة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكثيراً ما نستعمل في عاميتنا لفظ : محشوك ومحشوكين ، ونحن نريد بالأول المكان وبالثاني الجماعة ، فاذا قالت العامة : محشوك ، أرادت بقولها مجلساً مزدحماً ، واذا قالت ، محشوكين ، أرادت : جماعة مزدحمين .

وأصل هذه المادة الفصيحة يدل على الكثرة والاجتماع ، حشكت الناقة لبنها حشكاً وحشوكاً ، جمعته ، فهي حشوك ، وحشكت السحابة كثر ماؤها ، والنخلة كثر حملها فهي حاشك ، وحشك القوم ، تجمعوا .

فما أكثر الأطوار التي تقلَّبت فيها هذه المادَّة ، فقول العامة في مجلس من المجالس : محشوك ، معناه : ملآن ، وعلى هذا فانها استعارت هذه المادة من حشكت الناقة لبنها ، فاللبن محشوك ، أي مجموع ، ولكن العامة بدلاً من أن تطلق لفظ محشوك على القوم المجموعين اطلقته على مكان الاجتماع ، فاذا استعملت هذه المادة مفردةً أطلقتها على المكان واذا استعملتها جمعاً أطلقتها على الجماعة المجموعين في المكان ، وفي كل الأحوال فان بين استعمالها لهذه المادة وبين أصل المادة الفصيح نسبة قوية ، فلفظ : محشوك ، الشائع في دمشق أصله فصيح ، والعامة تستعمل في كلامها مصدر هذه المادة ، فمن قولها : حشك كثير .

ولا بأس بأن أختم هذا المقال بذكر تركيب ، فيه شيء من اللغة الشعرية ، في أيام المشمش نسمع كثيراً في دمشق المناداة الآتية : حلو الدلال يا حموي ، والمشمش الحموي أفخر أنواع المشمش ، ومدته قصيرة جداً ، فاذا استعملت العامة في ندائها هذا التركيب الشعري ، فهي تريد أن تفصح عن منزلة المشمش الحموي في الأفواه والأذواق .

وكم يكون مبلغ عجبنا اذا علمنا ان هذا التركيب بعينه جاء في شعر وضاح اليمن :

دعاك من شوقك الدواعي وأنت وضاح ذو تباع
دعتك ميالة لعوب أسيلة الخد باللماع
دلالك الحلو والمشهي وليس مريك بالمضاع

فلا تزال العامة في دمشق تستعمل في كلامها اللغة التي كان يستعملها وضاح اليمن في شعره على أيام بني مروان !

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net